آدم عليه السلام

خلق الله الأرضَ في يومين، وجعل فيها رواسِيَ من فوقها، وبارك فيها، وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيّام سواءً للسائلين، ثم استوَى إلى السماء وهي دُخَان، فقال لها وللأرض: ائْتيا طَوْعاً أو كرهاً، قالَتَا: أتَيْنَا طائِعين.

ثم استَوى على العرش، وسخَّرَ الشمس والقمر كلٌّ يجري لأجلٍ مسمًّى، ثم خلق ملائكتَه الذين يسبِّحون بحمده، ويقدِّسون اسمَه، ويُخْلِصُون في عبادته.

ثم شاءت إرادتُهُ تعالَى، واقتضت حكمتُه، أن يخلقَ آدمَ وذرّيتَه، ليسكنوا الأرضَ ويعمُروها، فأنبأ ملائكتَه أنه سينشىء خَلْقاً آخر، يسعَوْن في الأرض ويمشون في مناكبها، وينتشر نسلُهم في أرجائها، فيأكلون من نَبْتِها، ويستخرجون الخيراتِ من باطنها، ويخلُفُ بعضهم بعضاً فيها.

والملائكة خَلْقٌ اصطفاهم الله لعبادته، وأسبغ عليهم نعمتَه، وحبَاهم بفضله، ووفّقهم إلى رضاه، وهداهم إلى طاعته، فآدَهم[1] أن يخلقَ الله خَلْقاً غيرهم، وخافوا أن يكون ذلك لتقصير وقع منهم، أو لمخالفةٍ كانت من أحدهم، فأسرعوا إلى تبرئة أنفسهم، وقالوا: كيف تخلقُ غيرنا، ونحن دائبونَ على التسبيح بحمدك، وتقديس اسمك؟ على أنّ هؤلاء الذين تستخلِفهم في الأرض لا بدَّ أن يختلفوا على ما فيها من منافع، ويتجاذَبُوا ما بها من خيرات، فيفسدوا فيها، ويسفكوا الدماء غزيرة، ويُزهقوا الأرواح طاهرة بريئة، ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[2]؟ قالوا ذلك

---

(١) آدهم: اشتد عليهم.

(٢) سورة: البقرة، الآية: ٣٠.

رغبة فيما يزيل شُبهتَهم، وينزع الوساوِسْ من صدورهم، وامتدَّ رجاؤهم إلى الله أن يستخلفهم في الأرض، لأنهم أسبقُ إلى رِعَاية نعمته، وأوْلى بمعرفة حقِّه، ولم يكن سؤالهم ذلك إنكاراً لفعله، ولا شكًّا في حكمته، ولا تنقُّصاً لخليفته أو ذرّيته، لأنهم أولياؤه المقرَّبون، وعبادُه المكرَمون، لا يسبقونه بالقول، وهم بأمره يعملون.

أجابهم الله بما اطمأنّت له قلوبُهم، وثلِجت به صدورُهم، فقال: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٠﴾[1]؛ وأعرف من حكمة استخلاَفه ما لا تدركون، فسأخلق ما أشاء، وأستخلفُ مَنْ أريدُ، وسترونْ بعدُ ما خفِيَ عليكم، واسْتَتَرَ عنكم، ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٧٢﴾[2].

سَوَّى الله آدمَ من طين من صلصال[3] من حَمإٍ[4] مَسْنُونٍ[5]، ثم نفخ فيه من رُوحه، فسرَت فيه نَسَمةُ الحياة، وصار بشراً سويًّا.

ثم أمر الله الملائكةَ أن يسجُدُوا لآدمَ، فاستجابوا لربهم خاضعين، وأقبلوا على آدمَ معظِّمين. وعفّرُوا[6] جِباهُهم له ساجدين، إلاّ إبليسَ فقد خالفَ أمرَ ربّه، وانحاز إلى معصيته، وأبى واستكبر، وكان من الكافرين.

سأل الله إبليس عن سبَب امتناعه، واستَنْبأهُ حِكْمَة تخلُّفِه، فقال: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ٧٥﴾[7].

فزعم أنه خيرٌ مِنَ آدمَ عُنْصراً، وأزكى منه جَوْهراً، وظنّ أن لا أحدَ يُبَارِيه في علوُّ قَدْرِه، ولا يَسْتشرفُ[8] إلى سموِّ مكانته، وقال: أنا خير منه، خلقْتَني من نار، وخلقَته من طين.

---

(١) سورة: البقرة، الآية: ٣٠.
(٢) سورة: ص، الآية: ٧٢.
(٣) صَلصَال: الطين اليابس.
(٤) حَمَأ: الطين الأسود المنتن.
(٥) مسنون: مصور صورة إنسان أجوف.
(٦) عفر الشيء: ضرب به الأرض.
(٧) سورة: ص، الآية: ٧٥.
(٨) استشرف: علا.

جهر بالعصيان، وصرّح عن المخالفة والبهتان، واستكبر عن أمْرِ ربّه، واستنكف أن يسجدَ لمن خلقه بيدِه، فصار من الكافرين.

فجازاه الله على عِصْيَانه، وعاقبه على مُخَالفته، وناداه قائلاً له: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾[١]، وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾[٢].

سأل إبليس ربه أن يُنظِرَهُ[٣] إلى يوم الدين، وأن يمدَّ له في الحياة حتى يوم يبعثون، فأجاب الله سُؤْله، وقال له: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾[٤].

ولما استُجِيبَ سُؤْلُهُ، وتحقّقت رغبتهُ، لم يشكر لله فضلَهُ، بل قابل نعمته بالكُفران، وفضلهُ بالجحود والنُّكران، وقال: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾[٥]، مُتَرَصِّداً لغوايتهم[٦]، جاهداً في إضلالهم ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾[٧].

طرد الله إبليسَ من رحمته، ومدَّ له في أمله، وقال له: امْضِ لسبيلك الذي اخترتَه، وسِرْ في طريق الشرِّ الذي أرَدْتُه ﴿وَٱسْتَفْزِزْ[٨] مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ[٩] وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾[١٠] وعِدْهم المواعيدَ الكاذبة، ومَنِّهم الأمانيّ البعيدة، فلن أخلِّيَ بينك وبينَ مَنْ صحَّت عقيدتُه، وقويتْ عزيمته من عبادي المخلصين، ولن أجعلَ لك عليهم سلطاناً، فقلوبهم منصرفة، وآذانهم لقولك غير مُصْغِية.

---

(١) الرجيم: الملعون.
(٢) سورة: الحجر، الآيتان: ٣٤ و٣٥.
(٣) أنْظَر الشيء: أخَّره وأمهله.
(٤) سورة: الحجر الآيتان: ٣٧ ـ ٣٨.
(٥) سورة: الأعراف، الآية: ١٦.
(٦) غوى غوايةً: أمعن في الضلال.
(٧) سورة: الأعراف، الآية: ١٧.
(٨) استفزز: أثرهم وأزعجهم.
(٩) الخيل: الخيالة أو الفرسان. رَجِل: جمع راجل. الراجل: الماشي على قدميه.
(١٠) سورة: الإسراء، الآية: ٦٤.

أمّا ما اعتزمتَهُ من إغواء الناس وفِتْنتهم، فحسابُك عليه عسير، وجزاؤك على اقترافه عظيم، ولأملأنَّ جهنم منكَ وممن تَبِعك منهم أجمعين.

سجدُوا لآدم، فاعترفوا بفضله، وأقرُّوا بأنه خَيْرٌ منهم مقاماً، وأقربُ منهم إلى الله مكاناً، ولعلّهم قد ظنُّوا أنهم ربما كانوا أغزرَ منه علماً، وأكثر منه دراية وفهْماً، لذلك آتاهُ الله من علمه، وأفاض عليه من نُوره، وعلّمه أسماء الكائنات كلّها، ثم عرض هذه الكائنات على الملائكة، فقال: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾[1]، ليظهرَ عجزهم، ويستبينَ قصورُ علمهم، ويعرفوا أن حكمة الله قد اقتضت أن يكونَ آدمُ أولىٰ بذلك وأجْدَر، وأنَّ خلافتَه أحقّ ألاّ تنكر.

بهتوا لِمَا ووُجِهوا به، وسُقِطَ في أيديهم حينما حاولوا البحث في طوايا[2] نفوسهم، وأرادوا الرُّجوع إلى سابق علمهم، فلم يجدوا إلى الجواب سبيلاً، فأقَرُّوا بعجزهم، واعترفوا بقصُور علمهم، و﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ[3] لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾[4].

ولما كان آدمُ قد اغترف من فَيْض ربّه، واقتبسَ من نُور علمه، أمره أن يُنْبِئهم بما عجزوا عن معرفته، ويخبرهم بما قَصُرَت مداركهُمْ عن علمه، بياناً لفضله، وإظهاراً لحكمة استخلافه، فأخبرهم خليفةُ الله بما عجزوا عنه، فناداهم ربّهم: ﴿أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾[5].

حينئذٍ تبيَّنوا فَضْله، وأدركوا سِرَّ خَلْقه، وظهرت لهم حكمةُ استخلافه.

أذاق الله إبليس بَأْسَهُ، وسلبه نعمتَهُ، وأقبل على آدم فأسكنه وزوجته جنّتَه، وأوحَىٰ إليه أن اذكُرْ نعمتي عليك، فإني خلقتُك ببديع فِطْرتي، وسَوَّيتُك بشراً على مشيئتي، ونفختُ فيك من رُوحي، وأسجدتُ لك ملائكتي؛ وأفضتُ عليك

(١) سورة: البقرة، الآية: ٣١.
(٢) طوايا: جمع طويّة وهي الضمير.
(٣) سبحانك: تنزيهاً لك أن يخفى عليك شيء أو أن نعلم إلا ما علمتنا.
(٤) سورة: البقرة، الآية: ٣٢.
(٥) سورة: البقرة، الآية: ٣٣.

قَبَساً[١] من عِلْمِي، وهذا إبليسُ قد أيأستُه من رحْمتي ولعنته حين خرج من طاعتي، وها هي ذي دارُ الخلد جعلتُها لك منزلاً ومقاماً، فإن أطعتَ كافأتك بالإحسان، وخلّدْتك في الجِنانَ، وإن تركتَ عهدي أخرجتُك من داري، وعَذّبتكَ بناري، ثم لا تنس أن إبليس هذا عدوٌّ لك ولزوجك، فلا يخرجنَّكما من الجنّة فتشقَىٰ.

أباح لهما أنْ يأكُلاَ من الجنّة رغداً حيث شاءا، وأطلق لهما العِنَان[٢] في اجتناء ما يريدان من ثمارها، ونهاهما أن يقرَبا شجرةً من بين أشجارها الكثيرة.

وليُزِيل كلَّ إبهام[٣] في شأنها، وشك في معرفتها، أشار إليها تعييناً لها، وإزالةً لكلّ رَيْب قد يتسرّبُ إلى نفسيهما، وتوعدهما بالدخول في زمرة الظالمين إن قَرُبا منها، أو تناولا شيئاً من ثمارها، ووعدهما أن يمُدَّ لهما في أسباب النعيم إن اجتنبا الشّجرةَ التي نهاهما عنها، فلا يمسَّهما في الجنّة جوعٌ ولا عُرْيٌ، ولا ينالهما ظمأ ولا نَصَب، فقال: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾[٤]، ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾[٥][٦].

سكن آدمُ الجنّة، وصار يتمتَّع بما فيها من كل ما تشتهي الأنفُس، وتلذُّ الأعين، ولعلّه كان يتنقّلُ بين أشجارها، ويَتَفَيَّأُ في ظلالها، ويقتطف من أزهارها، ويتفكَّه بثمارها، ويرتوي من عَذْبِ مياهها، وشاركَتْهُ هذه المتعَة زوجُه، وعاشا كذلك مدَّة يرشُفان[٧] من مَنَاهل السّعادة.

حزَّ[٨] ذلك في نفس إبليس، وعَزَّ عليه أن يَنعم آدمُ وزوجُه بما ينعمان به، وهو

(١) القبس: الشعلة من النار. وهنا بمعنى أفدتك بشيء من علمي.
(٢) العِنان: سَيْرُ اللجام وهنا بمعنى أعطاهما مطلق الحرية.
(٣) الإبهام: الغموض.
(٤) سورة: البقرة، الآية: ٣٥.
(٥) لا تضحى: لا يصيبك حر الشمس.
(٦) سورة: طه، الآيتان: ١١٨ و١١٩.
(٧) رشف: مص بشفتيه.
(٨) حَزَّ: أثّر فيه وأحزنه.

مطرود من رحمة الله، مُبْعَد عن جنّته، فصحَّت نيتُه على أن يقوِّض[١] عَرْش سعادته، ويسلبه نعمتَه، أليس هو الذي أنزله من عَلْيائه، وأبعده عن نعمة الله ورضائه، واستبان بسببه جحودُه ونكرانُه؟ فليُقدم على الثأر لنفسه، وليحاول أن يتنقّص ذلك الذي أُمر بالسجود له والاعتراف بفضله، فدلف[٢] إلى الجنّة، وحدَّثه في سرّ وخفاء، وأوهمه بأنه صادقُ الودّ، مخلص في النصح، ثم جدَّ في استمالته إليه، فلم يترك سبيلاً إلا وَلجه، أو باباً إلاّ طرقه، وأظهر له ولزوجه عطفه عليهما، وإشفاقه من زوال نعمتهما، فقال: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾[٣].

ولما شامَ[٤] منهما مجافاةً لرأيه، وبُعْداً عن مشورته، ورأى أن آذانهما صَمَّت عن سماع صوته والإصاخة[٥] إلى نصيحته، أقسم لهما أنه من الناصحين، لا يقصد إلى ضررهما، ولا يريد النكاية[٦] بهما، ليؤكد صحّةَ قَصْده، وصوابَ رأيه، ولا شكَّ أنه أكثر وألحّ، وتمادى في إغوائه وألْحَف[٧]، وحاول إغراءهما بطيبِ ريح تلك الشجرة، وبديع طعمها، وحُسْنِ لونها، فاغترَّا بقوله، وافتتنا بزُخْرفِ لفظه، ومعسول وَعْدِه، وتابعا رأيه، وزَلاّ بإغوائه.

فلمّا خرجا عن أمر ربّهما سلبهما نعمتَه، وحرَمهما جنَّته، وناداهما ربّهما: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾[٨].

أنابا إلى الله، وندِما على فعلتهما، ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾[٩].

---

(١) قوَّض: هدَّم.
(٢) دلف: مشى رويداً وقارب الخطو.
(٣) سورة: الأعراف، الآية: ٢٠.
(٤) شام الشيء: حَزَرَه وقدَّره.
(٥) أصاخ: استمع.
(٦) نكى نكاية: أوقع به.
(٧) ألحف: ألحَّ.
(٨) سورة: الأعراف، الآية: ٢٢.
(٩) سورة: الأعراف، الآيتان: ٢٣، ٢٤.

تاب الله عليهما، وغفر لهما زَلَّتهما، فأثلج ذلك صدرهما، وقرّت به عينهما، وانبثق الأملُ في نفسيهما، بالبقاء في الجنّة، والتمتُّع بنَعيمها، وقد علم الله ما جال بخاطرهما، ووقف على ما تطلّعت إليه نفسهُما، فأمرهما بالهبوط منها، وأنبأهما أن العداوة بينهما وبين إبليس ستظلُّ قائمة، ليحْذَرَا فتنتَه، ولا يُصْغِيا إلى إغوائه فقال: ﴿ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾[1].

فجعل له مأرباً في الحياة، وأملاً يسعى إليه، وأخبره أنه قد انتهى طَوْر[2] النَّعيم الخالص والراحة التامّة، وأنه بعد خروجه من الجنّة وحِرْمانه نعيمها قد دخل في طَوْرٍ له فيه طريقان: هدًى وضلال، إيمان وكفر، فلاح وخُسران، فمن اتّبع هُدَى الله الذي شَرَعَهُ، وسلك الصراط المستقيم الذي حدَّدَهُ، فلا خوف عليه من وَسْوَسَةِ الشّيطان وإغوائه؛ ومن أعرض عن ذِكْر الله، وحاد عن سبيله، فسيكون عيشُه ضَنْكا[3]، وسيكون من الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدُّنيا، وهم يحسبون أنّهم يحْسِنون صُنْعاً.

---

(١) سورة: طه، الآية: ١٢٣.

(٢) الطَور: الحال والهيئة.

(٣) الضَّنْك: الضيق من كل شيء.